

THE LEGENDARY MANIFESTATION IN THE NOVEL THE NEWS OF THE SECOND FLOOD-ECLIPSE 3. MYTHOLOGICAL CRITICAL STUDY

Hajira Laouar¹

¹Badji Mokhtar-Annaba University (Algeria), drlaouarhadjira@gmail.com

Published: 01/2024

Abstract:

The desert is known for its vast space, which holds the most unthinkable secrets. Novelists started writing about the Tuareg desert-especially to unveil its secrets, the international novelist Ibrahim al-Kuni revealed in his novel (news of the second flood) about the jinn and its cohabitation with human beings. He revealed the lost paradise in the depths of the Sahara desert, the Tuareg desert. He revealed the vitality of the palm, and the wonder of the plant such as tarvas, which is a magical mythical plant. He revealed the desert flood and how to survive it.

In addition, the cosmic in all this momentum of mythology was not just going to employ them, but to write an epic about the Sahara desert, the cradle of civilizations. The post-flood desert.

Keywords: Legend, desert narrative, legendary symbol, Tuareg, Jinn, totem, deluge.

التجلي الأسطوري في رواية أخبار الطوفان الثاني - الخسوف 3. دراسة نقدية أسطورية

د. هجيرة لعور¹

¹ جامعة باجي مختار عنابة (الجزائر)، drlaouarhadjira@gmail.com

الملخص:

عُرِفَتِ الصحراء بفضائها الرحب، الذي يحمل من الأسرار ما لا يخطر على بال. وانطلق الروائيون يكتبون عن صحراء الطوارق - خاصة- لئيزيحوا اللثام عن أسرارها، فكشف الروائي العالمي إبراهيم الكوني في روايته (أخبار الطوفان الثاني) عن مواطن الجن، ومعاشرتها لبني البشر. وكشف عن الفردوس المفقود في باطن الصحراء الكبرى، صحراء الطوارق. وكشف عن حيوية النخيل، وعجيب النباتات مثل (الترفاس) وهو نبات أسطوري سحري. وكشف عن طوفان الصحراء وكيفية النجاة منه.

وكان الكوني في كل هذا الزخم من الأساطير ليس بصدد توظيفها فحسب، بل بصدد كتابة ملحمة عن الصحراء الكبرى مهد الحضارات. صحراء ما بعد الطوفان. الكلمات المفتاحية: الأسطورة، رواية الصحراء، الرمز الأسطوري، الطوارق، الجن، الطوطم، الطوفان.

تجليات العنصر الأسطوري "الجن" في الرواية:

يعد العنصر الأسطوري "الجن" من العناصر الأسطورية التي وظفها الكتاب والشعراء منذ القديم. وذلك راجع لكون هذا الكائن هو محل تساؤلات وإبهام لدى

الشعوب على مر العصور، لأنه كائن غيبي مبهم. ولأنه غير مرئي سمح للعقل البشري أن يطرح حوله تساؤلات كثيرة، وأن يلحق به تصورات شتى تعزز طبيعته الغيبية. فكان - في العقلية الأسطورية - كائنا "هوائيا" وكان "كائنا سريع التنقل" وأيضا "يمكنه إلحاق الأذى بالبشر". والمفهوم الخرافي للجن يتلخص في التعريف التالي: "فالجن عند هؤلاء أجسام عاقلة، خفيفة، تغلب عليها النارية، والهوائية. وهم - كما يقولون - مخلوقات سفلية من أخلاط نارية صافية"¹.

والجن كائنات لها طعام وشراب خاصين، وأيضا هي كائنات لها مساكن خاصة مختلفة عن البشر، إلا إذا زاروا مساكنهم عابثين أو زائرين. وهم يتناسلون أيضا وهم يأكلون ويشربون ويتناسلون، ولهم ذرية، ومنهم الذكور والإناث، وهم غالبا ما يسكنون في مواقع النجاسات والمعاصي كالحمامات والمزابل، وفي الخرائب حيث يفضلون الأماكن الخالية من الإنس كالصحاري. وقد يسكنون مع الإنسان في مسكنه، وأكثر ما يتواجدون في الأماكن غير المأهولة المهجورة والأودية والأماكن المظلمة"².

وقد وظفه الشعراء قديما في أشعارهم، بل نسبوا إليهم شاعريتهم، وبأنهم هم من يلقنهم الشعر، وسموهم بشيطان الشعر، وكانوا يفتخرون بذلك، بقولهم: "شيطاني أفحل من شيطانك". وقد اشتركت كل من الميثولوجيا العربية بمثلتها اليونانية في تقديس الشعر والشاعر، حيث إن "الشاعر في الجاهليتين اليونانية والعربية كان يملك قوى علوية يستمد منها فن الشعر. ولهذا قالت قريش عن محمد أنه شاعر - كما ذكرنا وكما جاء في القرآن - وإن لم يأت بشعر، وإنما ظنا منهم أنه ذو اتصال مباشر بأرواح علوية اعتبروها شياطين وتوابع. وهي في عرف الغير، ملائكة. وعلى كل فهي وحي خفي وصلة وثيقة بين النبي والله. أو بين الشاعر وما وراء الطبيعة"³.

ولهذا نجد الكفار قد هجوا به سيد الخلق، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بأنه شاعر؛ لأنه جاء بكلام معجز، سحر العقول والألباب. وبالتالي ظنوا به - مكابرة - أنه شاعر، وأن من يلقنه الشعر هو شيطان فحل كشياطينهم الذين يؤمنون بها.

يتجلى العنصر الأسطوري "الجن" في الرواية، من خلال ذكر الجن وموطنهم، ولهذا جاء التجلي صريحا، حيث ذكر الكوني، أن الجن تسكن الصحراء، وأنها تلحق الأذى بالإنسان، وأن لها مستوطنات تحميها من بطش الإنسان. وقد ورد هذا في أكثر من موضع في الرواية. حيث جاء على لسان إحدى الشخصيات في الرواية، وهو من

¹ . محمد منير أدلي، أبناء آدم من الجن والشياطين، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1993، ص: 14.

² . زهير الحموي، الإنسان بين السحر والعين والجان، مكتبة دار التراث، طبعة 1990، الكويت، ص: 120.

³ . الألويسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، صححه وشرحه وضبطه: محمد بمجة الزنري، ص: 279.

طوارق الصحراء، ما يلي: "... هنا يلتفت المتحدث يمناً ويسرة ويخفض صوته ويهمس في أذن أقرب جليس: "... صلته بمعشر الجن وثيقة"⁴ وهنا يقصد شيخ القبيلة غوما . ونراه يخفض صوته خوفاً من أذاها. وهذا هو المعتقد السائد المرتبط بأذية الجن للإنسان إن سولت له نفسه الاقتراب من مواطنها.

وهنا جاءت مطاوعة العنصر الأسطوري "الجن" متقلصة، حيث تتناسب المطاوعة مع التجلي، فحين كان التجلي تاماً، جاءت المطاوعة متقلصة عن طريق حالة (التشابه والتماثل) في أن الجن يمكنها أن تلحق الأذى ببني البشر، إن اعتدوا على خصوصيتها. حيث يؤكد ذلك، ما جاء في

الردشة بخصوص هذا الكائن "ويضيف محاولاً أن يضفي على حديثه غموضاً تعود الأهالي أن يصبغوا به لغتهم عندما يتحدثون عن عالم ما وراء الطبيعة خاصة عندما يتعلق الأمر بالجن: إنه من معشر هؤلاء"⁵.

إن أذية الجن للبشر معتقد يسلم به البشر منذ القديم، وتقدر به كل الكتب التي تناولت الجن والشياطين من هذا الجانب، ومنها الكثير من الحكايات التي تتحدث عن اختطاف الجن للإنسان، سواء رجلاً، أو امرأة. منها ما ورد في كتاب "قصص العرب"، منها قصة: "جان يخطف فتاة"؛ حيث ورد فيها ما يلي: "حدث زياد بن النظر الحارث قال: كنا على غدير لنا في الجاهلية، ومعنا رجل من الحي يقال له، عمرو بن مالك، معه بنية له شابة، على ظهرها نؤابة، فقال لها أبوها: خذي هذه الصحيفة ثم انتي الغدير فجيئنا بشيء من مائه. فانطلقت فواقفها عليه جان فاخطفها، فذهب بها، فلما فقدناها نادى أبوها في الحي، فخرجنا على صعب ودلول، وقصدنا على شعب ونقب، فلم نجد له أثراً، ومضت على ذلك السنون، حتى كان زمن عمر بن الخطاب، فإذا هي قد جاءت، وقد عفا شعرها وأظفارها وتغيرت حالها، فقال لها أبوها: أي بنية، أين كنت؟ وقام إليها يقبلها ويشم ريحها، فقالت: يا أبت، أتذكر ليلة الغدير؟ قال نعم. قالت: فإنه واقفني عليه جان فاخطفني وذهب بي، فلم أزل فيهم حتى إذا كان الآن غزى هو وأهله قوماً مشركين أو غزاهم قوم مشركون، فجعل الله تبارك وتعالى نذراً إن هم ظفروا بعدوهم أن يعنقني ويردني إلى أهلي فظفروا، فحملني فأصبحت عندكم"⁶.

وقد جاءت مطاوعة العنصر الأسطوري "الجن" في نص الرواية متقلصة، من خلال حالة (التماثل والتشابه)، حيث اختطفت الجن الفلاح المغمور بشربه اللاقي،

⁴ . إبراهيم الكوني، رواية أخبار الطوفان الثاني، الخسوف 3، تاسيلي للنشر والإعلام، ط2، 1991، ص:12.

⁵ . إبراهيم الكوني، أخبار الطوفان الثاني، ص:12.

⁶ . محمد أحمد جاد المولى، علي محمد الجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، قصص العرب، دار الفكر، دط، بيروت - لبنان، 1979، ج4، ص: 397/396.

ورأى من عجب عالمهم ما رأى، حيث جاء: "وجدوه مخمورا في الحقل، غارقا في القيء، غائبا عن الوعي، فأخذوه إلى المستوطنة، واستضافوه في بيوتهم، فوجد نفسه، عندما استيقظ وعاد له الوعي، نائما في فراش وثير لم يحلم به من قبل. تحيط به الوسائد الناعمة، والبُسُط العجمية الفخمة التي تغوص فيها أقدام الحسنوات الغاديات الرائحات في ردهات القصر ذي الجدران المزينة بزخارف ثرية مطعمة بالذهب والفضة ونقوش دقيقة مطرزة بقطع الجواهر التي تتلامع، وتتألأ تحت أضواء أسطورية تنبعث من كوة السقف"⁷.

وهنا تظهر مستوطنة الجن كعالم سحري عجيب، فيها من الذهب والفضة والجواري الحسان، ما لم يصادفه بشري من قبل، ولا هذا الفلاح المحظوظ الذي يروي ما رآه قائلاً: "أن جارية حسناء تقطر الدماء من وجنتيها سارعت إليه بمجرد أن صحا من غفوته، وجاءت بطست ذهبي اللون وطفقت تغسل رجليه القذرتين الملوثتين بالروث والطين وهي تبتسم ابتسامة رقيقة ساحرة، لم يصدق في البداية ولولا قدماء الملوثنان بالطين وروث الحمير والماشية لما صدق أبداً أن يكون هذا المخلوق المشقق القدمين واليدين الذي يطير رأسه الصداع هو نفسه الذي يرقد الآن في الجنة. ولكن الصبية الفاتنة انسلت من بين يديه برقة دون أن تفارق الابتسامة الشفافة شفيتها القرمزيتين فرأى الفلاح شيخاً مهيباً يجلس خلفها في الزاوية يحيط به فريق من الغلمان يتعاونون على تحريك مروحة هائلة منصوبة فوق رأسه"⁸.

والاعتقاد بوجود الجن، وأن لها عوالمها الخاصة، جعل الكثيرين يتوقنون إلى ولوج عالمها الذي يظنونه عالماً سحرياً، مليئاً بالملذات والنساء الحسنوات، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة. ولكن في هذه المرة الجن هي من خطف الفلاح المحظوظ إلى عالمها العجيب، فرأى ما رأى من النعم والذهب، والفضة، والجواري الحسان. وظن للوهلة الأولى أنه في الجنة، وخاصة أن الحسنوات لم يدخرن جهداً في خدمته: "جاءت أرتال الحسنوات يحملن أطعمة زكية الرائحة في أطباق من الذهب الخالص، صففن الأطباق في دائرة بين سريره ومقعد الشيخ الجليل الذي استمر يراقبه في صمت بنظرته الغائبة ... فقفز الفلاح وقد سال لعبه من فرط الجوع وامتعة الرائحة"⁹.

⁷ . الرواية، ص:13.

⁸ . الرواية، ص: 13.

⁹ . الرواية، ص: 14.

وجاءت المطاوعة متقلصة عن طريق حالة (التشابه والتماثل)، حيث أن الجنيات على حسنهن ورشاقتهن وغنجهن، فإن لهن أقدام أحمرّة كما جاء في كتب الأساطير حول الجن، وأن بلقيس ملكة سبأ كانت جنة وأنها حين كشفت عن ساقها كانا ساقا دابة. حيث جاء في نص الرواية: "إذ وقعت عيناه بالصدفة على قدم إحدى الجوارى فرأى أن قدمها هي حافر حمار وليست قدن إنسان، فعرف على الفور أن الله لم يقرر استضافته في الجنة بعد، وما يراه أمامه الآن ليس جنة الـانس وإنما جنة الجن"¹⁰

وهكذا تيقن الفلاح أنه في عالم الجن وليس في جنة الله. وأن كل ما حوله هو من عالمهم الذي سمع عنه مرارا. فطعامهم طعام أسطوري، وجواريمهم فائقات الحسن والجمال، ولكن أرجلهم أرجل دواب، وأن لهم من الذهب والفضة ما لم يخطر على بال بشر، حيث جاء: "فغسل يديه وتذوق من طعام الطبق الأول، طعام أسطوري له نكهة خفيفة، وطعم يفوق الوصف ... خاطب نفسه قائلا: مادمت قد طردت من جنة الله ووجدت نفسي في رحاب الجن، فلا بد أن أنهب حصتي من هذه النعم ... قربت نحوه نفس الحسنة ... طبقا ذهبيا فخما مزينا بنقوش بديعة ومرصعا بالجواهر الوامضة تحت الضوء وقد تدلت من جانبيه حلقتان ذهبيتان كبيرتان فقرر الفلاح الجشع أن ينفذ خطته على الفور"¹¹.

هكذا طمع الفلاح المحظوظ في أخذ الطبق الذهبي المرصع بالجواهر، وهنا استخدم ما هو سائد في المعتقد، أنه من يريد طرد الجن والقضاء عليها يقرأ عليها آيات من القرآن الكريم، أو تعويذات يحفظها "فأمسك الطبق من عروتيه الرائعتين وصاح بأعلى صوته: "بسم الله الرحمن الرحيم ... وانطلق في قراءة مكسرة لآية الكرسي، فخسف به الجن الأرض وخطفوا من أمامه القصر والأطباق الشهية والمخدع الوثير وطيروا الحسان وريش النعام ونكلوا به محاولين أن يخلصوا الطبق الذهبي من بين يديه ... وظل متشبثا بالحلقتين الذهبيتين متمتما بالآية، ومعشر الجن تلوح به في الفضاء وتعود به إلى الأرض لتخليص متاعها من قبضته الحديدية .. في النهاية وجد الفلاح نفسه ملقى فوق الرماد الذي حلفته خيمة الشيخ غوما... مجرد كابوس... وكم كانت دهشته عظيمة عندما هم بالانصراف فوجد إحدى الحلقتين الذهبيتين معلقة في سبابة يده اليمنى"¹².

هكذا عاد الفلاح غير المحظوظ من عالم الجن إلى عالم الإنس، وبعد أن تيقن أنه كان وهما. انتابته الدهشة والحيرة، وتملكه التردد هل ما عاشه هو حقيقة أم خيالاً

¹⁰ . الرواية، ص:14.

¹¹ . الرواية، ص:15.

¹² . الرواية، ص:12.

ووهما. بعد أن وجد إحدى حلقتي الإناء الذهبي في أصبعه. وهنا يكمن العجائبي الذي يستمد عجائبه من الأسطوري في لحظة تردد الشخصية داخل الرواية مع القارئ أثناء القراءة الساذجة حيث أنه لتحقيق العجائبي "لابد أن يحمل النص القارئ على اعتبار عالم الشخصيات عالم الأشخاص الأحياء، ويحمل أيضا على التردد في التفسير الطبيعي للأحداث المروية، ثم يكون هذا التردد ممثلا بواحد من موضوعات الأثر. ولا بد أن يتوحد القارئ مع الشخصية في حالة القراءة الساذجة، أي دون إحراز للقارئ تجاه ما يشاهد"¹³.

ويأتي إشعاع العنصر الأسطوري "الجن" لينتج لنا هامشا قرائيا واسعا، ذلك أن السبب الذي جعل الفلاح يزور مواطن الجن، ويرى ما رأى من عجيب ومدهش، وعاد مغتتما منه - كما زعم - ما هو إلا تأثير اللاقبي، الذي هو عبارة عن مخدر يذهب بالعقول والألباب. هذا الشراب الذي سلب عليه الروائي إبراهيم الكوني، فهو أفيون أهل الصحراء، بات يفتك بشباب وكهول الطوارق؛ حيث جر على الكثير من الناس عواقب وخيمة بسبب تعاطيه. والشواهد كثيرة في نص الرواية، أذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر، حيث إن الفلاح (سليم الدندان) الذي زعم بزيارته لعالم الجن واغتنامه لحلقة الإناء الذهبي، ها هو يعيد الكرة ويتأهب للعودة إلى عالمهم السحري، وتمتعه برؤية الجواري الحسان، ولكنه أخطأ التكهن هذه المرة؛ إذ لم يقده شربه لللاقيبي إلى ما يحلم به، بل قاده إلى حتفه، حيث جاء في نص الرواية: "أما سليم الدنداقي فقرر أن يحتكم إلى عدالة الجن، واحتسى ما وقع عليه تحت يده من اللاقبي، ثم ركب حمارته وذهب إلى مستعمرة العالم السفلي ... أملا في أن أن يشفق أصدقاؤه ويدعوه للمثول بين يدي ملكهم الجليل ... كان الفلاح يطمع في عطف القصر المكتظ بالجواري والحسان الذي سيمنحه القطع الذهبية ... وطلب من الجن بصوت عال أن يهبوا لنجدته .. ولكن أصدقاؤه خذلوه هذه المرة. ودسوا له في كفه أفعى لذغته والليل وهو نائم... وجده مستخدمو شركة حفر الآبار ... مسود الوجه على شفثيه ابتسام غامضة وقلة اللاقبي الفارغة، المنصوبة على رأسه كأنها حجر المقبرة ... ولم يعرفوا السبب بعد أن انسحبت من المكان بمجرد أن انتهت من المهمة التي أرسلت من أجلها"¹⁴.

ولم يكن الفلاح غير المحظوظ الضحية الوحيد لللاقيبي، وما يجره من عواقب وخيمة على من يتعاطاه، إنما ألحق السوء أيضا ماريا زوجة الكونسا، فقد وجدت منتحرة في فوهة النبع بعد شربها اللاقبي اللعين، حيث جاء: "قال في نفسه وهو يلهث

¹³ . تزيطنان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصديق بوعلام، ط1، دار الشقيقات للنشر والتوزيع، الرباط، 1994، ص:54.

¹⁴ . الرواية، ص: 48.

ويمسح العرق أن قدمها ربما زلت وسقطت في الوحل المتوحش خاصة إذا لعب اللاقبي برأسها - كما يكد ذلك الفلاح - انتفض وهو يتخيل ماريا تغوص في الوحل الرجراج، يشل الخمر لسانها فتعجز عن الصياح وطلب النجدة ... في العتمة، فوق مياه العين الهادئة، عند الفتحة المسدودة بالليف وخرق القماش التي تنطلق منها المياه إلى الجداول، رأى رجلها منصوبة إلى أعلى، طافية فوق الماء الساكن. كان نصف ماريا عالقا بتجويف العين، عند الفتحة"¹⁵.

وقد ساد في المعتقد الأسطوري، بأن الجن تلحق الأذى بالإنسان وتوصله في بعض الأحيان إلى الجنون، حيث جاء في الرواية: "صاح لا حول الله، حقا أن جيرانه من الدنيا السفلية استطاعوا أن يؤثروا في عقله"¹⁶.

كذلك يتجلى العنصر الأسطوري "الجن" في رواية الكوني، هذه المرة تصريحا تاما لمعشر الجن الطيبين؛ حيث كما عرفت العقلية العربية التي تؤمن بما حيك عن الجن من خرافات وأساطير، أن الجن منهم السيئون الذين يلحقون الشر بالإنسان، ومنهم الأخيار الذين يتعاشرون مع الإنس ويقدمون لهم يد المساعدة، حيث إن قصة تلك الفتاة التي اختطفها جني من النبع ليلا، تبناها، ولم يعتدي عليها، ولها قصة جميلة أخبرت بها أباها عند عودتها: "... فقالت يا أبت، أتذكر ليلة الغدير؟ فقال: نعم، قالت: فإنه واقفني عليه جان فاخطفني، وذهب بي. فلم أزل فيهم حتى إذا كان الآن غزى هو وأهله قوما مشركين أو غزاهم قوم مشركون، فجعل الله تبارك وتعالى نذرا إن هم ظفروا بعدوهم أن يعتقني ويردني إلى أهلي، فظفروا، فحملني فأصبحت عندكم. وقد جعل بيني وبينه أمارة، إن احتجت إليه أن أولول بصوتي، فإن يحضرنني. فأخذ أبوها من شعرها وأظافرها. وأصلح من شأنها، وزوجها رجلا من أهله. فوقع بينه وبينها ذات يوم ما يقع بين المرأة وبعلها فغيرها، وقال: يا مجنونة، والله إن نشأت إلا في الجن. فصاحت وولولت بأعلى صوتها، فإذا هاتف يهتف يا معشر بني الحارث اجتمعوا وكونوا حيا كراما، فاجتمعنا فقلنا: ما أنت رحمك الله؟ فإننا نسمع صوتا ولا نرى شخصا، فقال: أنا راب (كافل) فلانة. رعيها في الجاهلية بحبسي، وصنعتها في الإسلام بديني، والله إن نلت ما نلت منها محرما قط، واستغاثت في هذا الوقت، فحضرت فسألته عن أمرها، فزعمت أن زوجها غيرها بأنها كانت فينا، ووالله لو كنت تقدمت إليه لفقأت عينيه، فقلنا: يا عبد الله، لك الحباء والجزاء والمكافأة..."¹⁷.

¹⁵. الرواية، ص: 133، 134.

¹⁶. الرواية، ص: 116.

¹⁷. محمد أحمد بحاد المولى، وآخرون، قصص العرب، ص: 397.

أما في الرواية فقد ورد أنه قدم معشر الجن الخيرون خدمة للشباب المثلث، وأنقذوه من من الضياع، وأقروا له حقيقة أن العلم والمعرفة تكون في جوهر الإنسان في حد ذاته. فقط عليه ببعض العزلة والتأمل. وهذا ما أكده الروائي: حيث جاء في نص الرواية: "الآن عرف أن الحقيقة هنا، في الروح، في لحظة واحدة مدت له الصحراء يد المساعدة وقادته إلى الحقيقة هنا، في هذا القفص الصغير في الصدر"¹⁸.

2 - تجلي المذهب الحيوي:

ويعتبر هذا المذهب بأن النباتات ومنها الشجر هي كائنات حية تتنفس وتحيا وتنتزج كالإنسان. وأنها تعيش مثله، وهذا ما ذهب إليه جيمس فريزر: "فالعالم عموماً يعتبر بالنسبة للرجل الهجري كائناً، ولا يستثنى من ذلك الشجر والنبات، إذ يظن أن لها نفوساً كنفسه هو، ولذا فإنه يعاملها على هذا الأساس ... وتتمتع الأشجار بالنفوس والحياة؛ يعني أنها تحس وتشعر وبذلك يصبح قطعها بمثابة عملية جراحية دقيقة يجب إجراؤها بكثير من الدقة واللفظ ومراعاة لأحاسيسها وتخفيفاً لآلامها حتى لا تتقلب عليهم إن هم أجروها بإهمال وتقريط"¹⁹.

يتجلى المذهب الحيوي في الرواية من خلال العنصر الأسطوري "النخلة الأم"؛ حيث كان شيخ القبيلة دائم التأمل في النخلة الأم التي كبرت وشاخت وحتى لا تسقط وتتهوى أسندتها ابتناها النخلتين الصغيرتين فاتكأت عليهما في صورة مؤثرة، تصور ضعف النخلة الأم الحنون، واستنادها على صغيرتيها. حيث جاء: "ظل الشيخ غوما مخلصاً لأنقاض نخلته، ولا يقضي القيلولة إلا تحت رأسها المقطوع الذي لا تبخل عليه النخلتان القبليتان بالهددة والحنان. فقرأ الشيخ في هذا المشهد أنبل مشاعر الأمومة والرحمة وقال في نفسه أن الطبيعة أكفأ من البشر في التعبير عن الحب. وكثيراً ما يقف أمام هذا المشهد الحزين، يتأمل الأعجوبة. ويفكر في المعجزة التي تجعل النخلتان المتقاطعتان تتحنيان في جلال باكيتان، مسدلتا الأعراف. لتمنعا جذع الأم المقدمة من السقوط إلى الأرض وتحيطاً نهاية الساق عن الرأس المقطوع المجرد من الجريد في محاولة مستميتة لإيقاف قدميه وبعث الحياة فيه من جديد"²⁰.

وبالتالي كانت مطاوعة العنصر الأسطوري النخلة الأم، متقلصة ذلك من خلال "حالة التشابه والتماثل"؛ حيث أنها كالأم، أنجبت وضحت ثم عندما كبرت وانحنى ظهرها، استندت على ابنتيها، لتقوى، وتتحدى العجز والكبر.

¹⁸. الرواية، ص: 110/109.

¹⁹. سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، دراسة في السحر، والدين، والنشر، 1971، ص: 390، 393.

²⁰. الرواية، ص: 16.

وقد ذهب أهل الصحراء في تقديسهم للنخلة، إلى جعلها ضريحا، ومزارا، تعلق فيه الرايات البيض، ويتبارك بها الأهالي. بل وعدّها ولي صالح يتبارك به. حيث جاء في نص الرواية: "في رقبة النخلة، أسفل الرأس المقطوع تتدلى راية بيضاء جاء بها الفلاحون وعلقوها في أعلى الجذع بعد انتحار مرزوق بأيام قليلة معبرين بهذا العمل عن مشاعر الأسى والقداسة ومقدمين البرهان الذي يزكي النخلة ويؤهلها للدخول في قافلة الشهداء والأولياء. بل إن إيمان البعض بأن أم النخيل ما هي إلا ولي جعلهم يرشون الجذع بالوسط بالجير فيبدو الساق المصروع للمشاهد مطوقا بحزام أبيض يضفي عليه مهابة الأضرحة المقامة على قبور الأولياء... جاءت الفلاحات بمباخر وطفقنيتبركن باكيات بجذع النخلة. طالبات من الأم الرحيمة أن تشفع لهن عند الخالق العظيم فيرق قلبه. ويشفين من العقم أو يقي أولادهن من داء الجذري، والبرص. ويحميهم من كيد الحاسدات وتآمر العفاريت على حياتهن. وبلغ التطرف والطمع ببعضهن أن توسلن جثمان النخلة بأن يشحن أزواجهن بالفحولة ويكفيهن شر اللاقي²¹"

وقد جسد لنا الروائي الاعتقاد بالمذهب الحيوي الذي أفضى إلى الاعتقاد بأن النخلة ولي صالح، وهنا يأتي الإشعاع خافتا، يحيل على هامش قرائي يكشف عن العقلية الخرافية المتجذرة عن أهالي الصحراء وخاصة النساء ، بأن النخلة ولي صالح يقف وسيطا بينهم وبين الإله. يشفع لهم حتى يصفح عنهم ويهبهم من بركاته ونعمه. وهذا حال المجتمعات البدائية، وحتى مجتمعات الصحراء الكبرى.

تجليات العنصر الأسطوري (الطوفان):

يتجلى العنصر الأسطوري تجليا صريحا من خلال عنوان الرواية المصرح به، كذلك من خلال عنوان الفصل الثالث من الرواية. هذا الطوفان الذي أغرق الصحراء ، جراء انفجار النبع ؛ حيث في البداية إلتف حوله الأهالي، ورددوا الأغاني والابتهالات المرنبطة بالخصب. وبالتالي كان التجلي صريحا، جاء في الرواية: "مع حلول الشتاء تدفقت الينابيع وتفجر ماء النبع، وتصاعدت المياة محملة بالطين والأوحال عبر الفضاء. فتجمهر الناس وتزاحم الأهالي يتفرجون على جبل الماء. .. يرددون الأغاني التي تندد بالعطش وتلعن الجفاف، تمجد السيول والأمطار، الأغاني التي توارثوها عن أهلهم وجلبوها معهم إلى الصحراء"²².

²¹. الرواية، 16.

²². الرواية، ص:60.

فقد الناس منذ القديم يرددون أغاني وابتهالات حول آبار المياه، والينابيع والأنهار. وهذا معروف عند شعوب مختلفة، وفي ديانات وثنية مختلفة أيضا، كالفرعون، والآشوريين والهنود.

واكتسبت الرقود قداسة منذ القديم، لما أحيط بالماء من قداسة منذ القديم، وقد استخدم في الطقوس والعبادات. حيث؛ "قدس الانسان الماء أصل الحياة، وللحاجة الضرورية اليومية له. فكان يراق تحت أقدام الآلهة، واستعمل الماء لأغراض دينية وسحرية"²³. وهنا كان التجلي صريحا؛ حيث يمثل النبع إله الخصب، ولأنه المخلص للناس والحيوان والنبات من الموت. يغاث الناس والزرع والأنعام به. والنبع، أو البئر مكان تحلق الأهالي للبقاء، والرقص فرحا وتبركا به. وكانا أيضا مكانا للراحة والتأمل. لكن النبع هو مكان خصب وخير ونماء وحياة، ولكن سرعان ما ينقلب إلى "طوفان" قاتل.

يجرف معه كل معالم الحياة، ويميت في طريقه كل من تمتد إليه ألسنته المائية، يموت البشر، ويموت الحيوان، والزرع. وهو مكان تنتشر فيه رائحة اللعنة والموت على شاكلة الأساطير القديمة.

فقد جاءت مطاوعة العنصر الأسطوري النبع/البئر/الطوفان، متقلصة، عن طريق حالة "التماثل والتشابه" بما جاء في أساطير الطوفان القديمة. حيث غمر الطوفان القديم كل الأرض ومن عليها. ووصل إلى قمم الجبال العالية، "...وحدث بعد السبعة أيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض... وانفجرت كل ينابيع الغمر العظيم، وانفتحت طاقات السماء. وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة... وتعاضمت المياه كثيرا جدا على الأرض. فتغطت جميع الجبال الشامخات التي تحت كل سماء، خمس عشرة ذراعا في الارتفاع، تعاضمت المياه فتغطت الجبال فمات كل ذي جسد يدب على الأرض من طيور وبهائم ووحوش، وجميع الناس"²⁴.

وكان الملاذ من الطوفان هي الصحراء المنقذة. جاء في الرواية: "إلى أين إن شاء الله... إلى أرض الله الواسعة إلى الصحراء"²⁵.

وجاء الإشعاع متقلصا، حيث كانت المطاوعة متقلصة، فأهالي صحراء الطوارق، يعجبهم عيش الواحات والزراعة والتجارة، بل يفضلون الغوص في قفار

²³ علي الشوك، اهتمامات ميثولوجية، واستطرادات لغوية، "القسم الثالث" دراسات: مجلة الكرمل، العدد: 26، سنة: 1987. ص: 20.

²⁴ العهد القديم، الإصحاح: 08/07.

²⁵ الرواية، ص: 126.

الصحراء، ويعيشون في الخيام، ويتلذذون بصيد الودان والغزلان. وأغرقت الجنة الأرضية بالطوفان.

الخاتمة:

جسد المشروع الروائي لإبراهيم الكوني ومنه رواية "أخبار الطوفان الثاني"، ملحمة كبرى عن صحراء الطوارق، كونها الأرض البكر التي لم تُدَنَّس بعد. فأعدت إلينا رواية الصحراء غبطة البدايات وروعة الفردوس المفقود ووحدة الكائنات. حيث تقوم على مكونات علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقته بالطبيعة الصحراوية، كعلاقته بالحيوان، وعلاقته بالجبل، وعلاقته بالنبات. فصحراء الكوني يتآخى فيها الإنسان مع الحيوان باعتباره طوطمه. ويتآخى مع النبات باعتباره كائنا حيويًا تجسيدا للمذهب الحيوي.

هذا الفضاء الصحراوي الذي يبحث فيه الإنسان عن العزلة، من أجل التأمل، لأن الصحراء رديف الروح. ولهذا سعى الكوني أن تكون الصحراء الموطن المقدس للرجل الطارقي. صحراء يجب أن يحافظ سكانها على نقائها، وعذريتها. وإن حدثت وتلوثت بيد البشر، كأن يدخلوا عليها التمدن كالألات الزراعية، أو آلات حفر الآبار، فإنها ستغضب لا محالة، وتنقلب جنة الصحراء إلى طوفان جارف، يجتاح الرمال الشاسعة بألسنته المائية، ويغمر الطوفان الصحراء، وتتجدد الحياة بعدها، ويعود الطارقي إلى موطنه الأم الذي لا دنس فيه.

قائمة المصادر والمراجع :

- محمد منير أدلبي، أبناء آدم من الجن والشياطين، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1993.
- زهير الحموي، الإنسان بين السحر والعين والجان، مكتبة دار التراث، طبعة 1990، الكويت.
- الألويسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، صححه وشرحه وضبطه: محمد بهجة الزثري.
- إبراهيم الكوني، رواية أخبار الطوفان الثاني، الخسوف 3، تاسيلي للنشر والإعلام، ط2، 1991.
- محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، قصص العرب، دار الفكر، دط، بيروت - لبنان، 1979.

- تزفيطان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصديق بوعلام، ط1، دار الشقيقات للنشر والتوزيع، الرباط، 1994.
- سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، دراسة في السحر، والدين، والنشر، 1971.
- علي الشوك، اهتمامات ميثولوجية، واستطرادات لغوية، "القسم الثالث" دراسات: مجلة الكرمل، العدد: 26، سنة: 1987.